«عازف البيانو» في مواجهة الحرب

إذا ضاقت المخابىء فالعزف هو الخلاص

كتب: أمين صالح

كان المخرج البولندي رومان بولانسي في السادسة من عمره حين احتل النازيون بولندا، وبعد عامين أخذوا والديه إلى معسكر اعتقال حيث توفيت أمه لاحقاً في حين نجا أبوه، أما هو فقد وجد نفسه متروكاً وحده، محاولاً البقاء على قيد الحياة من خلال العيش مع عدد من العائلات البولندية.

تجاربه في أيام الحرب تلك كانت مريرة بل ومرعبة إلى حد أنها تركت جروحاً غائرة انعكست بشكل أو بآخر في أفلامه اللاحقة التي حققها في بولندا ثم في أوروبا وأمريكا منذ الستينات.. وهذا الانعكاس تمثل في حالات العصاب ومشاعر الرعب والارتياب والباراونويا التي تتكرر في أعماله والتي تعبرّ عنها شخصيات قلقة تتأرجح غالباً بين العقل والجنون، الواقع والوهم، البراءة والوحشية.

وقد وجد بولانسكي في مذكرات عازف البيانو، البولندي اليهودي فلاديسلاف سبيلمان، تماثلاً شديداً للحالات التي شاهدها واختبرها في تلك المرحلة المأساوية من طفولته. لقد تحدث العازف، في الكتاب الذي ألفه في العام ١٩٤٦م، عما عاناه من رعب، وعن تجاربه في وارسو المحتلة عندما وجد نفسه وحيداً، بعد نقل أفراد عائلته إلى معسكر الاعتقال. وفي صراعه من أجل البقاء متسلحاً بالعزم والإصرار ومعتمداً على الخط راح ينتقل من مخبأ إلى آخر في مدينة فقدت ملامحها ولم يعد ممكناً التعرف عليها بسبب الخراب الشامل.

من خلال هذه السيرة الذاتية لموسيقار، وجد بولانسكي فرصته لسرد جانب من سيرته هو عندما كان صغيراً.. وهو الذي قال ذات مرة: ''كنت أعرف دائماً أنني يوماً ما سوف أحقق فيلماً عن هذا الفصل المؤلم من التاريخ البولندي.. ''وهكذا حقق ''عازف البيانو'' شوم ذى فَىٌ وبهذا الفيلم يعود بولانسكي إلى طفولته، إلى جذوره، إلى عالمه المنهوب ليقدم معالجة موضوعية، غير حسية، وذات صرامة ودقة في البناء والأسلوب، ملتزماً إلى حد بعيد - كما يقول - بما ورد في الكتاب سواء في التفاصيل أو في الطابع الهادئ، المنضبط، حيث يصف الكاتب حالات العنف والرعب والشقاء والألم دون مغالاة وجدانية أو ميلودرامية لغرض التأثير العاطفي.

أحداث الفيلم تدور بين عامي ١٩٣٩م مع قصف الألمان لبولندا و١٩٤٤م مع تحرير بولندا ودخول القوات الروسية وارسو. ويبدأ الفيلم مع البطل وهو يعزف على البيانو مقطوعة لشوبان وفجأة يأتي القصف. هو يعيش مع عائلة في حي اليهود بوراسو ومع الاحتلال يبدأ كل شيء في التفكك والانهيار. عائلته تؤخذ إلى معسكر اعتقال وسوف لن يرى أهله ثانيةً. وسرعان ما يتعين عليه أن يخضع لشروط الاحتلال الذي يفرض الحياة الصعبة والقاسية والعنيفة، وحيث التطهير العرقي والقتل المجاني الذي لا مبرر له. وللإفلات من الاعتقال أو القتل فإنه يتنقل من مكان إلى مكان آخر. البعض (خصوصاً أفراد المقاومة السرية) يساعدونه في توفير ملجأ آمن مؤقت له، والبعض يخونه ويشي به فيهرب إلى مكان آخر، ومن خلال المنافذ والتصدعات في مخابئه يختلس النظر إلى ما يحدث في الخارج من مواجهات مسلحة أو اعتقالات أو أفعال قتل وعنف. والمخبأ هنا مصدر حماية ونجاة ولكن المكان وفي الوقت نفسه، المكان مشكوك في قدرته على صد الخطر والذي يوقع الهبة في النفس.. (وهذا الملمح رأيناه في أكثر من فيلم لبولانسكي حيث الموقع - الشقة تحديداً - قابل للاختراق ولا يقدر أن يصد التهديد الخارجي.. مكان في : طفل روزماري، ڤزذصجسةدخ ڤ (نفور)، المستأجر ڤشخءخش ڤوفي فيلمه ''عازف البيانو'' الأمكنة التي يختبئ فيها تبدو كما لو أنها تتقشر وتنسلخ جدرانها عنها لتظهر هشة وغريبة. إن مكان الاختباء يضيق تدريجيا، فهو يحتمي بالمدينة أولاً ثم يلجأ إلى الحي، ومن بيوت الحي إلى الشقة، ومن الشقة إلى زوايا أضيق، وكما تقلصت مساحات الإقامة إزداد هو إنكماشاً ليتلاءم مع الحيز الذي يحد نفسه فيه، مدفوعاً بغريزة البقاء وبالأمل في النجاة، ولكن بدرجة أكبر، وبذلك الشغف الذي لا يخبو ولا يخفت لحظة: ولعه بالموسيقى، والموسيقى التي لا يستطيع الاستغناء عنها، حتى عندما يكون في مخبئه يحيط به الأعداء ولا يتعين عليه أن يصدر صوتاً فأنه يدنو من البيانو، لكنه لا يعزف بل يحرك أصابعه كما لو يعزف في خياله. والمفترض أن من ينقذه في النهاية هو ضابط نازي مغرم بالموسيقى ويعجب بعزفه على البيانو فيتستر عليه ويطعمه لقاء أن يعزف له بعض المقطوعات بين حين وآخر. في الأخير، فإن حبه للموسيقى لا ينقذه فحسب بل يحقق له الانتصار الروحي.

نضال بطل الفيلم من أجل البقاء يأخذ الحيز الأكبر من العمل، إنه ضحية عالم مجنون وعنيف يواجهه وحيداً وأعزل من كل شيء، من أحد يعتمد عليه - في المدينة الشبحية - غير نفسه والحظ الذي يحالفه. والفيلم لا يوضح مشاعر هذا الرجل على نحو صريح. هو منعزل، وحيد، موهوب، إلا أنه يبدو متحفظاً - عاطفياً - واجتماعياً - حتى مع أفراد عائلته رغم شعوره بالولاء تجاههم. وفي أجواء الحرب والاحتلال والمقاومة، نجده سلبياً وغير فعال، لا يمتلك وعياً سياسياً أو حساً وطنياً، يكتفي برصد ما حوله مراقباً من بعيد، ومن خلال نوافذ الشقق التي يختبئ فيها، الأحداث التي تدور في الخارج. شيئان فقط يثيران اهتمامه وشغفه: الموسيقى والرغبة الشديدة في البقاء.

لقطة من فيلمعازف البيانو

الفيلم يركز بؤرته على أزمة ومأزق العازف وحده دون أن يخوض في تفاصيل الشخصيات الأخرى، ومن خلاله نشاهد مظاهر من الحياة في ظل احتلال يمارس القتل والاضطهاد والإذلال. والمخرج بولانكسي يستنطق هذه الحياة دونما مبالغة أو تلاعبات عاطفية أو وجدانية مفرطة، بل إن أغلب صورة نجد ما يماثلها في الوثائق النازية. كما إن بولانسكي لا يضفي سمات رومانسية على الضحايا، بل إنه لا يحجم عن إظهار الأثرياء اليهود وهم يتعاونون مع النازيين وأولئك الذين حققوا الثراء السريع مستغلين الأوضاع المزرية في تحقيق الكسب المادي، والشباب الذين يتواطؤون في قمع أبناء جلدتهم في سبيل الحصول على امتيازات ومكاسب، مظهراً انتفاء روح التضامن والتعاطف بين الضحايا. من جهة أخرى، يحقق المخرج حس التوازن والموضوعية من خلال إظهار شخصية الضابط النازي في صورة إيجابية. ملمح آخر يتميز به الفيلم وهو ابتعاده عن استغلال مادته في التلاعب بالجمهور عبر الاعتماد على عناصر التشويق والإثارة، ولهذا نلاحظ بأن أغلب أفعال العنف مرئية في لقطات عامة متيحاً للمتفرج أن يتأثر ويتأمل لا أن ينقاد عاطفياً وغرائزياً. فنياً لا يلجأ بولانسكي إلى التلاعبات البصرية والإفراط في التقطيع، بل يعتمد الطابع التقليدي في أسلوبه البصري والسردي، فالسرد قائم على النظام الكرونولوجي بدءاً من الاحتلال النازي وانتهاءاً بتحرير بولندا.

أداء قوي ورائع من أدريان برودي، في دور العازف، والذي استحق بجدارة أوسكار أفضل ممثل. أما رومان بولانسكي فقد فاز بأوسكار أفضل مخرج.. وقد حاز الفيلم أيضاً على جائزة مهرجان كاف وجائزة الأكاديمية البريطانية.

بروفايل

أندريه تاركوفسكي ..شاعر السينما الروسية

في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر من عام ١٩٨٦، تلقت الأوساط السينمائية نبأ فاجعة وفاة شاعر السينما المتميز المخرج الروسي أندريه تاركوفسكي. لقد اختار تاركوفسكي الرحيل الأبدي الذي بدأه عبر شخصياته وأفلامه باحثا عن الحقيقة والخلاص، عن التطهير والسمو الروحي. إن هذا السينمائي المبدع يشكل ظاهرة فريدة تخرج عن جميع المعايير النقدية والتقويمية المتعارف عليها سواء في السينما الروسية أو في السينما الغربية، لقد خلق وحده اتجاها سينمائيا مستقلا ظل يمارسه ويطوره حتى آخر يوم في حياته الإبداعية والشخصية عرف بالتيار الشعري للسينما الذاتية وهو تيار له جوانبه ومعاييره الشكلية والمضمونية والجمالية، يتناول المواضيع الكونية التي تهم كل شعوب الأرض وتهم الإنسان أينما كان ومهما كان عرقه وأصله ودينه وثقافته.

لقطة من فيلم المقتفي للمخرج أندريه تاركوفسكي

وقبل أن يتوفى هاجر إلى ايطاليا حيث أخرج فيلمه الخارق ''الحنين'' وهو رائعة وتحفة سينمائية تتحدث عن حنين وغربة الفنان الروسي المنفي الممزوجة بحب الأرض والوطن الجارف، وخصوصا عندما يكون هذا الكائن المفرط الحساسية منفيا رغما عنه. ثم يأتي فيلمه الأخير في الغربة هو فيلم ''التضحية'' الذي أخرجه عام ١٩٨٦، أي قبل وفاته بأشهر قليلة، في السويد. وكما كان منتظرا من هذا العملاق السينمائي، جاء فيلمه قفزة نوعية جديدة في عالم الإبداع يحققها هذا المخرج الفذ في عالم جماليات الإخراج الطليعي في تيار السينما الشعرية الذي صار أحد قادته إلى جانب بازوليني وبيرغمان وراوول رويز والان تانر وغيرهم.

يتحدث فيلمه ''التضحية'' عن كل شيء وعن اللاشيء، عن الوجود وما قبل الوجود وما بعده عن معناه وسره، عن العدم وما يفرزه من عبث وضياع وبحث عن المجهول بلا جدوى وعما يقف فيما وراء الطبيعة متخذا شكل الايمان أو الخرافة. إنه قصيدة للإنسان عن الإنسان، عن معنى وهدف وجوده في هذه الحياة الغامضة. كل شيء في الفيلم قائم بذاته، متكامل التكوين والتنفيذ، لم يترك شيئا للصدفة كل شيء متناسق ومتناغم، الصوت والصورة والألوان، الزمان والمكان والتكوين والأشياء والفراغات والكتل الحركة والسكون السرعة والإيقاع، السكون والضوضاء، الصمت... لقد قال بيرجمان عن فيلم ''التضحية'' لتاركوفسكي قبل عرضه التجاري:

''لقد صنع تاركو فسكي ما كنت أحلم بصنعه طيلة تاريخي الفني بأسره ولم أفلح، إنه أعظم فيلم لم يخرجه بيرغمان بعد''.

ولد تاركوفسكي في سنة ١٩٣٢ على ضفاف الفولغا وقد هجر والده بيت العائلة عندما بلغ الطفل تاركوفسكي عامه الثالث. وكان والده أحد كبار الشعراء الروس الذي بقي أمينا على حبه للمرأة التي تركها لأسباب خارجة عن إرادته. واصل الشاب دراسته المتنوعة فمن الموسيقى إلى الرسم مرورا بدراسة اللغة العربية وآدابها كما درس البحوث الجيولوجية وعمل كخبير جيولوجي في سيبريا بين ١٩٥٤ و١٩٥٦ وفي هذه السنة انضم ''تاركو فسكي الشاب إلى معهد الدولة السينمائي »فغيك « ودرس فن الإخراج السينمائي لمدة أربع سنوات تحت إدارة وإشراف المخرج السوفيتي المخضرم ميخائيل روم، الذي ربى ووجه ورعى هذا الجيل المتميز من المخرجين ونشّأهم على حب التقاليد الإنسانية السامية، وكان تأثيره لا يكف عن الظهور عبر هذا المشهد أو ذاك في أفلامه. وجاء عام ١٩٧٤ ليثير عاصفة لم تهدأ بسهولة، وكانت هزة كبيرة عندما عرض فيلم »المرآة « الصعب جدا بالنسبة لمستوى وأذواق ذلك الوقت. كان الفيلم ذا خطاب فيلمي غير مرتب على أصول تقليدية متعارف عليها، نص محطم للتسلسل الانتقالي والتواصل الكلاسيكي، تتشابك فيه وتتداخل الذكريات الذاتية لشخصيات الفيلم، تجري فيه الأحداث ببطء وبسرعة في نفس الوقت، وتتدفق بل وتفيض في الصور والمشاهد التي تتناوب فيها الألوان مع الأبيض والأسود ضمن حركية ليست عفوية بالمرة، بل بطريقة مدروسة ومبرمجة ومتعمدة وبدقة متناهية.

عندما أراد إخراج فيلمه »ستالكر أو الدليل « استطاع بعد جهود مكثفة ومضنية، الحصول على موافقة عمله لهذا الفيلم، وكان قد انتزعها عنوة من أيدي وأفواه حفنة من البيروقراطيين الذين حاولوا عرقلة وإعاقة تنفيذ وتحقيق هذا المشروع الرائع وبعد اتمامه للفيلم واجه المخرج مرة أخرى حملة من الرفض والمحاربة له ولفيلمه لم يكن لها مبرر. وقد شارك بهذا الفيلم في مهرجان كان خارج المسابقة الرسمية ونال عنه جائزة تقديرية سنة ١٩٨٠ يتحدث فيلم »ستالكر« عن سر رحلة ميتافيزيقية طويلة في مكان يدعى »المنطقة « وهو مكان محظور وخطر جدا يمنع الولوج اليه. نجد ثلاث شخصيات غريبة التصرفات والهيئة، وهم على التوالي كاتب وعالم فيزيائي وستالكر أو الدليل - ليس لهم أسماء - ستالكر الدليل يقود الآخرين عبر طرق ومتاهات مجهولة بين الأنقاض والأعشاب البرية والمستنقعات والخرائب، حيث يهيمن على المشاهد مناخ مائع، مائي خال من النزاع الظاهر، رطب ومغلق ومخيف.

لقد تعرض تاركوفسكي لكثير من الإغراءات والضغوط عندما جاء للمشاركة في مهرجان كان بفيلم ستالكر وعرضوا عليه طلب اللجوء السياسي ومعارضة نظام بلده وإدانة مواقفه تجاه الفنانين والمثقفين المنشقين.

اندريه تاركوفسكي

في ذاكرة السينما

ظلمته أدوار الشر وأنصفه '' أبو سويلم''

محمود المليجي .. فيلم «الأرض» أعاد له اعتباره

في أحد أفلامه

ولد الفنان محمود المليجي في عام ١٩١٠ بحي المغربلين، وتوفي في ٧ يونيو/حزيران ١٩٨٣م. مع بداية الثلاثينات انضم الفنان إلى فرقة فاطمة رشدي،وبدأ حياته مع الفن من خلال هذه الفرقة،حيث كان يؤدي الأدوار الصغيرة، حتى رشحته الفنانة فاطمة رشدي لبطولة فيلم بعنوان ''الزواج'' بعد أن انتقل من الأدوار الصغيرة في مسرحيات الفرقة إلى أدوار الفتى الأول، ولكن فشل الفيلم جعله يترك الفرقة وينضم إلى فرقة رمسيس حيث عمل فيها كملقن ، ثم عاد مرة أخرى لتقديم الأدوار الصغيرة إلا أنه بالصبر والجهد استطاع أن ينتقل من دور لاخر، وأن ينجح في تقديم أدوار الشر التي برع فيها وبلغ شهرة عالية جعلته من أهم نجوم السينما المصرية.

محمود المليجي

يعد واحداً من أهم الوجوه السينمائية والمواهب الحقيقية التي أنجبتها السينما العربية في تاريخها. مثّل أدوار الشر لسنوات طويلة باعثا الخوف في قلوب المتفرجين،و لاحقا تنوعت أدواره ،لكن أجود ما قام به في السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته يعود إلى المخرج يوسف شاهين الذي كشف أبعادا جديدة لمواهبه التي لم تكن معروفة من قبل، خاصة في فيلم (الأرض) في عام ١٩٧٠. كما لعب أهم أدواره مع المخرج صلاح أبوسيف في فيلم (لك يوم يا ظالم) كما برع في تقديم نوعية أخرى من الأدوار وهى الأدوار الإنسانية مثل فيلمي (حكاية حب) و(يوم من عمري)، تزوج المليجي من الفنانة علوية جميل التي كانت ضمن فرقة رمسيس وذلك في عام ١٩٣٩ واستمر هذا الزواج حتى وفاته، واشتركا معاً في تقديم أعمال كثيرة منها (أولاد الفقراء)، (الملاك الأبيض)، (سجين الليل).